

٥- أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المنقور له احمد باشا تيمور

الشيخ محمد الهباصي المهدي الحنفي

هو ابن الشيخ محمد امين ، ابن الشيخ محمد المهدي الكبير الشافعي ، كان جده المذكور من الأقباط ، فأسلم على يد الشيخ العلامة محمد الحنفي ، ورأى عليه وعلى أخيه الشيخ يوسف الحنفي وغيرها حتى صار من كبار العلماء ، وترشح لرئاسة الأزهر بمد الشيخ الشرقاوي ولكنها لم تتم له ، وتولاها الشنواني ، وقد أطل الجبرتي في ترجمته . ثم نشأ ولده الشيخ محمد امين عالماً حنفياً ، وتولى الفتوى بمصر زمناً ، وتوفي سنة ١٢٤٧ .

وولد الترجيم بالسكندرية سنة ١٢٤٣ فقرأ بها بعض القرآن ، ثم حضر الى القاهرة سنة ١٢٥٥ فآتم حفظه ، واشتغل بالعلم سنة ١٢٥٦ فقرأ على الشيخ ابراهيم السقاء الشافعي ، والشيخ خليل الرشيدى الحنفي ، والشيخ البتاني وغيرهم ، ثم صدر امر

بروتوبلازم صرف ، وهي قطرة صغيرة من المادة الجلاتينية تعيش في الماء . وقد حاول كثيرون أن يصنعوا الاميا من المواد الكيماية التي يتألف البروتوبلازم منها فنجزوا عن ذلك . فالواد مضبوطة والنسبة بينها صحيحة والأحوال المحيطة بها ملائمة تمام . ولكن الحرارة الحيرة لا وجود لها ، إذ الله وحده هو الذي يصنع الحياة

قال البروفسور آرثر طلمسن : « لامنص لنا من التسليم بالأولية التي وضعها ارسطو طاليس وهي أنه في كل سلسلة من الأعمال المتصلة لا يمكن أن يظهر في آخرها شيء لم يكن نوعه موجوداً في أولها . ولذلك فإن عقلنا وقصة تحمره يقود اننا راجعين بنا شيئاً فشيئاً الى العقل الأعظم الذي بغيره لم يكن شيء مما كان » وبعبارة أخرى أنه كيفما خص العالم تركيب الكون ونواميس الطبيعة ونشوء الحياة حتى عقل الانسان لم يرمفرا من التسليم بأن وراء القصد الأعظم يد الله .

به . مه

ابراهيم باشا بن محمد على بتوليته افتاء الديار المصرية في منتصف شهر ذى القعدة سنة ١٢٦٤ وهو في نحو الحادية والمشرين من سنه ، ولم يتأهل بعد لثل هذا المنصب الكبير ، وقال إن السبب في ذلك عارف بك الذي تولى القضاء بمصر ، وكانت له صلة بأبي الترجيم . فلما ذهب ابراهيم باشا الى القسطنطينية ليتسلم من السلطان مرسوم ولايته على مصر قابله عارف بك ، وكان إذ ذاك شيخاً للاسلام وأوصاه خيراً بذرية الشيخ المهدي ، وأن يولى منهم من يصلح لمنصب أبيه ، فكان هم السؤال عنهم بعد عودته لمصر ، وطلب الترجيم لحضرة فصادفوه في درس الشيخ السقاء يحضر مقدمة مختصر السعد ، فركب اليه وهو بين الخوف والرجاء ، ولما قابله أتى عليه لاشتغاله بالعلم ، ثم أنبأه بأنه ولاء منصب الفتوى بمصر ، وعزل عنه الشيخ احمد التميمي الخليلي وخلع عليه خلمة هذا المنصب ، ثم عقد له مجلساً بالقلعة حضره حسن باشا المنسترلي والشيخ مصطفى البروسى وغيرها ، فأقروا على اقامة أمين للفتوى يقوم بشؤونها حتى يتأهل صاحبها لها ويأشرها بنفسه ، واختاروا له الشيخ خليل الرشيدى الحنفي بدل الشيخ على البقل أمين فتوى التميمي ، ونزل الترجيم من القلعة بموكب كبير من العلماء والأمراء ووفد الناس على داره للتهنئة ، ومدحه الشعراء ، فمن ذلك قول الشيخ محمد شهاب :

عز باعزة الحمى أن تقاسي بمهارة الصريم فيما تقاسي ومنها قوله :

تب مفتى الهوى وتبت يدها ضل شرعى نهجه والسياسي فدعيه يا عز اصطباري انت فتواه فتنة للناس ولئن قلت أى فتوى البرايا حكمت بالنصوص دون التباس وارتضاها الزمان قل لى وأرخ قلت فتوى مهديه الهباصي

١٢٦٤

وهي قصيدة طويلة ألحق بها هذه الآيات الثلاثة مشيراً فيها الى التميمي والى الرشيدى أمين الفتوى الجديد

قلت لما أن تم بدر التميمي واعتراه قص الحسوف الشديد رجح الدر بالفتاوى الى ما كان فيه من المكان للشيد فلنم الرشيد يا ابن أمين ولنم الأمين يا ابن الرشيدى وروى الفاضل محمد افندى التميمي في الترجمة التي جمعها لأبيه الشيخ احمد التميمي ان سبب عزله عن الافتاء أحقاد قديمة كانت

فسر الخديو ويادر الى عزل الشيخ المروسي في اواخر السنة المذكورة ، وكان العدوى يطمع فيها ، وما قال ما قال إلا توطئة لنفسه فأخلف الله ظنه ، وصدر أمر الخديو في منتصف شوال بتولية المترجم والجمع له بين منصب الافتاء ومنصب الأزهر ، فاستعاه وخلع عليه وأزله من عنده بالوكب المتباد . فبأشر شؤون منصبه بحزم وعزم وتؤدة وتعقل ، وكان أول ما صدر منه سعيه لدى الخديو بإعادة ما كان لأهل الأزهر من المرتبات التي أبطلت زمن عباس بلشا ، فواقفه على ذلك وأعيدت المرتبات الشهرية والسنوية ، ثم استصدر أمراً من الخديو بوضع قانون للتدريس ، فأجابه الى ذلك ووضع قانون الامتحان ، وكانوا قبل ذلك لا يمتحنون بل كات من تأهل للتدريس تصدّره ، فيحضر أول درس له شيوخه وغيرهم من كبار العلماء ، ويناقشونه فان وجدوه أهلاً أقروه وإلا أقاموه .

ولم يزل المترجم سائراً في طريقه المحمود ، ملحوظاً بعين التجليل من الحكام ، وبين الخاص والعام ، حتى ثارت الثورة العراقية المشهورة ، ورأى فيه العراقيون أنه ليس بالرجل الذي يوافقهم ويساعدهم في مطالبهم ، فكان من جملة ما طلبه عمراي باشا من الخديو لما زحف بالجيش على قصر عابدين عزل المترجم من الأزهر ، فمزل عنه في المحرم سنة ١٢٩٩ ، وتولى عليه بدله الشيخ محمد الانبائي ، وانفرد هو بالافتاء ، ثم تجسست الفتنة وجاهر العراقيون بطلب عزل الخديو ، وكتبوا قراراً بذلك أجبروا العلماء والوجهاء على التوقيع عليه ، فامتنع المترجم من موافقتهم على ذلك ، وقال لحامل القرار : أنا لا أوقع يدي ، فإذا كان في الأمر غضب فان خاتمي مني خذوه ووقعوا أتم بأيديكم كما تشاءون . فانهرف عنه العراقيون وضايقوه وبثوا عليه العيون حتى احتجب في داره التي على الخليج بالقرب من مدرسة الفخري المشهورة بجامع البنات ، وتحامى الناس زيارته ، وصار لا يخرج منها إلا لصلاة الجمعة في أقرب مسجد اليه ؛ وصرت عليه أيام وليال قضاها في انتظار حتفه في كل ساعة تمر به ، حتى كانت الهزيمة الكبرى على العراقيين ، وتشتت شملهم ، وعود الخديو الى مقر ملكه في ١٢ ذى القعدة من تلك السنة ، فذهب المترجم فيمن ذهب للسلام عليه وتهنئته بالظفر ، ووخل مع العلماء فخصه الخديو بترحيب

في صدر ابراهيم باشا منه بسبب معارضته له في أمور تخالف الشرع كان يريدتها ومعارضته الشيخ فيها ، فلا يجد بداً من الاذعان بسبب اقبال أبيه محمد على عي الشيخ ، فلما تخلى عن ولاية مصر وتولاها ابراهيم كان أكبر همه عزله عن الافتاء . انتهى .

ثم أكب المترجم على الاشتغال بالعلم خصوصاً الفقه حتى نال منه حظاً وافراً ، وجلس للتدريس بالأزهر لاقراء الدر المختار ققرأ منه الى كتاب الطلاق وأكل قراءته في داره ، وقراً الأشباه والنظائر في داره أيضاً ، وبأشر أمور الفتوى بعفة وأمانة وتدقيق وتحققين ، واشتهر بين الناس بالحزم والمزم وعدم ممالأة الحكام ، وحسبك وقوفه في وجه عباس باشا الأول وتمريضه نفسه للتهلكة صيانة لما استودع من أمانة العلم ، وسبب ذلك ان هذا الوالي أراد أن يمتلك جميع ما بيد ذرية جده محمد على مدعيًا انه ورد مصر لا يمتلك شيئاً ، فكل ما خلفه لتدريته إنما هو من مال الأمة يجب رده اليها ، ووضع يد أمينها المتولى شؤونها ، واستغنى المترجم فلم يوافقته وأصر على الامتناع ، ولم يحفل بوعيده وتهديده حتى طلبه نجاة الى بنها فسافر اليها وهو موقن بالهلاك ، وكان معه عند طلبه الشيخ أبو السلاء الخلقاوي ، فسافر معه لموانسته ومواساته ، فلما وصلا قصر بنها روجع المترجم في الفتوى فأصر على قوله الأول ، فأصر بهما فأنزلا الى سفينة بخارية سافرت بهما ليلاً في النيل لنق المترجم الى أبي قير ؛ واعتراه لشدة وجله زحير كاد يودي به وهو مع ذلك مصر على قوله ، والشيخ أبو السلاء يهوتن عليه الأمر ويؤانسه بالكلام الى أن صدر الأمر بارجاع السفينة ، وأنزلانها وأمرها بالسفر الى القاهرة وسلم الله . فكانت هذه الحادثة سبباً لملو قدر المترجم في النفوس واعظام الولاة فمن دونهم لشأنه ؛ وتسبب منها أيضاً لإقباله على الشيخ أبي السلاء المذكور وسعيه له في المناصب التي تولها وعظم بها أمره بعد ذلك .

ثم لما كانت سنة ١٢٨٧ والمتولى على القطر الخديو اسماعيل باشا ، وكان انهرف عن الشيخ مصطفي المروسي شيخ الأزهر ، فأراد عزله ولكنه خشي الفتنة ، لأنه شيء لم يقع من قبل لأحد من مشايخ الأزهر ، فأخذ في جس نبض العلماء وسبر غورهم في ذلك ، فهوتن عليه الشيخ حسن المدوي الأمر ، وأوضح له أنه وكيل الخليفة ، وللخليفة أن يميز من يشاء ، والوكيل له مطلقاً ،

وأدام عليه العافية ، إنني ضمعت عن حمل أئقال الأزهر ، فأسأله أن يعفني منه . ولم يكن الخديو يتوقع منه هذا الكلام ، بل كان يظنه يجيب بجواب يصرف للسألة بسلام ، ففضيب وقال مستفهماً : ومن الاقتاء أيضاً ؟ فقال له نعم يا أئفئدنا ومن الاقتاء أيضاً ، ثم انصرف .

ولم يكن الترجم ممن يمزب عنهم أن مثل هذا السبب لا يدعو الى الاستقاة ، وخصوصاً أن الخديو صرفه بالحسنى مع من أهمهم ، ولكن كان هناك سبب أقوى أغضب رئيس النظار نوبار باشا الأرمنى ، وذلك لحادثة رفعت عنها دعوى أمام المحاكم الأهلية ، واستدعى الأمر طلب كشف رجه إحدى الخندرات للتحقق منها فامتعت عن الاسفار محتجة بعدم جوازها فى الشريعة ، واستفتى للترجم فى التازلة ، فأئفى بعدم الجواز وشدد فى للسألة ؛ فشكا رئيس النظار للخديو وأوضح له أن الشىخ أصبح عقبه أمام القضاة معارضاً لأحكام القضاء ؛ وقال إنه طلب منه إما أن يقيله من الوزارة ، أو يمززل للترجم . فلما قال الخديو للترجم ما قال تيقن أن المراد عزله فاستقال . فأمر الخديو يوم الثلاثاء ٣ ربيع الثانى من السنة المذكورة باعادة الشىخ محمد الانبائى للأزهر ، وإقامة الشىخ محمد البناء للائفاء .

وبقى الترجم بداره التى على الخليج واشتغل باصلاح قسم منها تشعت فأعاده الى رونقه الأول ، وصيغ حيطانه بالأصباغ ، وهو القسم المطل على الخليج ، وصار يعضى وقته بالنظر فى شؤونه الخاصة والاشتغال بالعلم ، الى أن أعيد الى الاقتاء فقط فى (١) فبقى به الى وفاته ، وأصيب فى آخر أيامه بفالج وهو يتوضأ لصلاة الجمعة أبطل حركته ، ثم تعافى قليلاً وصار يخرج فى مجلته للتزوه بدون فرجية بل بعباءة بيضاء من الصوف ، وأشير عليه بالاقامة بجولان لجفافها ، فانتقل إليها وأقام بها برهة لم يستفد فيها شيئاً ، فعاد لداره بالقاهرة ، ووافته منيته فى الساعة الخامسة من ليلة الأربعاء ١٣ رجب سنة ١٣١٥ عن اثنتين وسبعين سنة ، بعد أن لازمه المرض نحو أربع سنوات ، فأذن له على المآذن ، وحزن الناس لموته حزناً شديداً ، وتكاثرت الجموع على داره لتشيع جنازته ، فقيل إن عدد المشيعين بلغ نحو أربعين ألفاً ، والمصلين

(١) فات الرحوم أن يئيت الطرخ

ورعاية زيادة عمن معه من العلماء تقديراً لحسن بلائه فى الاخلاص له مدة الفتنة ؛ ولحظ الشىخ الانبائى شىخ الأزهر إغماصاً عنه من الخديو ، وخشى أن يمزله ليعيد العباسى ، فقال بيدى لا بيد عمرو ، واستقال بعد أيام ؛ فأصدر الخديو أمره يوم الأحد ١٨ منه باعادة الترجم الى الأزهر ، علاوة على منصب الاقتاء الذى بيده ، ونصه - موجهاً لرئيس النظار :

(إنه بناء على استعفاء حضرة الأستاذ الشىخ محمد الانبائى من وظيفة مشيخة الجامع الأزهر ، ووثوقنا بفضائل وعالية حضرة الأستاذ الشىخ محمد العباسى المهدي ، قد اقتضت ارادتنا توجيه هذه الوظيفة لمهده كما كانت قبلاً ، علاوة على وظيفة ائفاء السادة الحنفية المتحلى بها من السابق ، وصدر أمرنا للسوى اليه بذلك فى تاريخه ، ولزم اسدار هذا لدولتكم إسماراً بما ذكر فى ٢ أكتوبر سنة ٨٢ الموافق ١٨ ذى القعدة سنة ٩٩) .

فتمت للترجم رئاسة الأزهر على رغم أنف كثيرين ، فان بعض علماء الأزهر سموا لتصيب الشىخ عبد الهادى نجبا الايارى ، وكتبوا كتابة بذلك وأخذوا يوقعون عليها ، ويطوفون بها على العلماء ، فلم يشعروا إلا وقد فاجأهم الأمر باعادة الترجم ، وذهب سميمهم وتمهم أدراج الرياح .

ثم استمر الترجم جامعاً للنصبيين قائماً بشؤونهما أتم قيام ، حتى كانت سنة ١٣٠٤ وفيها بلغ الخديو أن جماعة من الأعيان والتجار مثل محمد باشا السيوفى ، وأخيه أحمد باشا يجتمعون للسمر بدار الترجم فى أغلب الليالى ، فيتكلمون فى الأمور السياسية ويظهرون أسفهم من وجود الانجليز بمصر ، ومواقفة الحكومة لهم فيما يحاولون ، وغير ذلك من هذه الشؤون ، فحق الخديو وأرسل لمحمد باشا السيوفى بالحضور فلم يجده ، بل وجدوا أخاه احمد باشا ، فحضر الى القصر وقابل الخديو ، فوبخه توبيخاً شديداً وقال له : يئجيل الى أنكم تريدون إعادة الثورة المرابية ، فبراً من ذلك وحلف أن اجتمعهم لم يكن إلا بقصد السمر والائتناس ، ثم قابل الخديو للترجم فى إحدى المقابلات الاعتيادية فلم يهش له كما دته ، بل قال له وقت الانصراف : يا حضرة الأستاذ ، الأجدر بالانسان أن يشتغل بأمر نفسه ، ولا يتدخل فيما لا يعنيه ويجمع الجسيديات بداره . فلم يجبه للترجم إلا بقوله : أطال الله عمر أئفئدنا

من الامساك والتقتير ، ويضعون عليه التوادد الخارجة عن حد المعقول ، والمروف عنه المشاهد للقاصي والداني أن دأبه كانت مفتوحة للصادر والوارد ، لا تخلو مائده يوماً عنهم ، وحبنا أنه كان يخرج زكاة أمواله كل سنة ويفرقها على المستحقين رحمه الله رحمة واسعة وأكثر في الأمة من أمثاله .

وكان حائراً لكسوة التشريف من الدرجة الأولى ، ومنحه الخديو عباس باشا الثاني الوسام العثماني الأول في ٢١ صفر سنة ١٣١٠ هو وشيخ الأزهر الشيخ محمد الانبائي ، وقاضي انقضاء جمال الدين افندي ، وسبب ذلك أن السيد توفيقاً البكري قبيب الأشراف سافر في هذه السنة إلى دار السلطنة ، وتوصل بمساعدة الشيخ أبي إلهدي الصيادي إلى مقابلة السلطان عبد الحميد ، فأمر عليه بهذا الوسام ورتبة قضاء عسكر الأناضول ، فلما بلغ مسامع الخديو أحب أن لا يكون ممتازاً عن كبار الشيوخ وهم القاضي والمفتي وشيخ الأزهر ، فأتم عليهم بهذا الوسام ، وأرسل إلى السلطان ملتصقاً بالانعام على المفتي وشيخ الأزهر رتبة قضاء عسكر الأناضول ، وعلى القاضي رتبة قضاء عسكر الرومللي ، لأنه كان حازماً لرتبة الأناضول ، لكن طلبه لم يصادف قبولاً .

وأحيل على الترجمة قديماً أمر انتقاء القضاة الشرعيين والمفتين الذين يقامون في ولايات القطر ومراكزه ، فكان يختار ذوي الكفايات ويتحرى فيهم النجابة والذكاء واللبانة ، ويحامي عنهم لدى الحكام ، ويشد أزرهم ، فحصل له بذلك مقام لدى أهل العلم المرشحين لهذه المناصب ، وفقدوه ووجهوا وجوههم شطر داره ، وهو مع ذلك لا يميل مع الهوى في تنصيبهم ، ولو كان ممن يمد اليد يجمع من هذا الوجه شيئاً كثيراً ، ثم رأيت الحكومة أن يكون أمر تنصيبهم منوطاً ببلجة تؤلف بنظارة الحفانية برئاسة وكيلها إذ ذاك بطرس غالي باشا ، وعرضوا على المترجم أن يكون من أعضاء تلك اللجنة فأبى .

وكان له في المحاماة عن أهل الأزهر ومساعدتهم القدر المثل ، وزوى عنه موافق في ذلك : منها أن الشيخ مصطفى المروسي مدة توليه على الأزهر استصدر من الخديو اسماعيل باشا أمراً ببنى الشيخ حسن العدوي إلى إسنا وكاد ينفذ فيه لولا أنه استغاث بالمترجم فقام بنصره وذهب للخديو مستشفعاً ، ولجَّ وألجَّ حتى عنى عن الشيخ .

عليه نحو خمسة آلا ، ثم دفن بقرافة المجاورين في زاوية الأستاذ الحفني جنب أبيه وجده ، ورتناه كثير من الشعراء جمعت مراتبهم في رسالة ألفها الشيخ عثمان النوصلي تزييل القاهرة ، وسماها «الرأى الموصلية في العلماء المصرية» ، لأنه أضاف إليها ما رثى به الشيخ عبد الرحمن الرافعي مفتي الاسكندرية ، والشيخ سليم القلعاوى شيخ مسجد القلعة ، والشيخ محمد العربي التوفون هذه السنة أيضاً .

وكان المترجم رحمه الله ربة إلى الطول ، مليح الوجه ، منور الشيبة ، معتدل القامة ، ذا هيئة ووقار ، مات عن ثروة طائلة وولدين هما الشيخ عبد الخالق المهدي والشيخ أمين ، مانا بصدده الواحد تلو الآخر . ولم يؤلف من التأليف سوى مجموع فتاواه الذي سماه (الفتاوى للمهدية في الوقائع المصرية) ، طبع بمصر سنة ١٣٠١ في ثمانية أجزاء كبار . وعاش في عز وتبجيل مدة حياته ، وتولى الاقضاء مدة ابراهيم باشا وعباس باشا الأول وصعيد باشا واسماعيل باشا وتوفيق باشا ، أي أربعين سنة من سنة ١٢٦٤ إلى سنة ١٣٠٤ لم يزل فيها ، فلم تحفظ عليه بادرة خطأ أو مخالفة للشرع ، وسبب ذلك أنه تولاها وهو صغير والعيون شاخصة إليه ، فكان لا يفتي فتوى إلا بعد المراجعة والتدقيق والتبكير ، فحصلت له بذلك ملكة فيه حتى صار معدوم النظر ، لا يجاريه مجار في هذا المضمار ، وأضيف إلى ذلك ما كان عليه من التقوى والتشدد في أمر الدين ، حتى كانت موافقه أمام الولاية لا تزيد إلا رفعة في عيونهم لطمعهم أنه لا يريد إلا نصرة الحق ، فأجوبه وأغدقوا عليه بالانعام . ومن موافقه غير ما ذكرناه أن الخديو اسماعيل باشا أراد مرة أن يستولى على الأوقاف الأهلية ويعرض عنها أهلها ما يقوم بماشهم ، فاستفتاه في ذلك فتوقف ، وأفتاه بمضمم بالجواز ، فتكدر منه وجمع بينه وبين مخالفه ، فناظرهم وقاز عليهم بعد ما ألفوا رسائل في الحادثة وأكثروا من الجلبة . ولم يقتصر الولاية على مشاورته في الأمور الدينية المختصة بمنصبه ، بل كانوا يستشرونه في غيرها من معضلات الأمور لما عرفوه فيه من سعة المدارك وجودة الرأي ، حتى أن اسماعيل باشا لما عزل عن مصر قال لولده توفيق باشا فيما أوصاه به : احتفظ يا بني بالشيخ المهدي فإنه رجل لا نظير له . وبالجملة فمحاسن المترجم كثيرة ، ولم يكن فيه ما يشينه سوى ما كان يرميه به بعض شائليه